
هشاشة اليقين
تأملات في الحقيقة، والشك، والإنسان، ومعنى الوجود.
« ليس كل ما نؤمن به حقيقة، وليس كل ما نشك فيه وهماً »
الكاتبة
ملك مصطفى سلمان

هشاشة اليقين

الفصل الأول: هشاشة الحقيقة

«ليس كل ما نؤمن به حقيقة، وليس كل ما نشك فيه وهمًا.»

حين تصبح الحقيقة سؤالًا

لطالما اعتقد الإنسان أنه يعرف، وأن ما يحمله في داخله من قناعات هو انعكاس حقيقي للعالم من حوله. يمضي سنوات عمره وهو يبني أفكاره، ويرسم حدود معتقداته، ويمنح الأشياء أسماءً ومعاني، حتى يصبح من الصعب عليه أن يتخيّل أن كل ما يؤمن به قد يكون قابلًا للخطأ.

لكن، ماذا لو لم تكن الحقيقة كما نراها؟

ماذا لو كانت الأشياء التي نتمسك بها ليست سوى تفسيرات صنعناها كي نستطيع فهم عالم أكبر من قدرتنا على الاستيعاب؟

ربما لا نخاف الحقيقة بقدر ما نخاف ما قد تفعله بنا. نخاف أن تأتي يومًا لتعيد ترتيب حياتنا من البداية، أن تهدم فكرة أمضينا أعوامًا في بنائها، أو أن تجعلنا غرباء عن أنفسنا، بعدما كنا نظن أننا نعرفها جيدًا.

إن الإنسان لا يبحث دائمًا عن الحقيقة، بل يبحث أحيانًا عما يمنحه الطمأنينة. وقد يختار إجابة ناقصة على سؤال مفتوح، لأن الإجابة، مهما كانت ضعيفة، تبدو أكثر احتمالًا من الوقوف أمام المجهول.

وهنا تبدأ هشاشة اليقين.

سجن القناعات

نولد دون معرفة مسبقة بالعالم، ثم نبدأ بجمع الأفكار من حولنا. نتعلم كيف نفكر، ماذا نحب، ممَّ نخاف، وما الذي ينبغي أن نؤمن به. ومع مرور الوقت، تتحول هذه الأفكار إلى جزء من هويتنا، حتى إننا لا نعود قادرين على التمييز بين ما اخترناه بأنفسنا وما ورثناه دون أن نسأل عنه.

لكن هل يعني اعتيادنا على فكرة أنها صحيحة؟

وهل يصبح الاعتقاد حقيقة لمجرد أننا كررناه طويلًا؟

قد تكون بعض قناعاتنا مجرد أبواب أُغلقت في وجوه الأسئلة، لا لأننا وجدنا الإجابة، بل لأننا تعبنا من البحث.

والأكثر غرابة أن الإنسان قد يدافع عن فكرة لا يعرف أصلها، ويهاجم رأيًا لم يمنح نفسه فرصة لفهمه، فقط لأن الاختلاف يهدد العالم الصغير الذي اعتاد العيش داخله.

وربما تكون أولى خطوات النضج أن نمتلك الشجاعة لنقول: لا أعرف.

فليس الجهل دائمًا في غياب الإجابة، بل قد يكون في الاعتقاد بأننا نمتلك جميع الإجابات.

قداسة الشك

ننظر إلى الشك غالبًا باعتباره ضعفًا، وكأنه عجز عن اتخاذ موقف أو نقص في الإيمان بما نعرفه. لكن ماذا لو كان الشك بداية الوعي، لا نهايته؟

فالإنسان الذي يسأل ليس بالضرورة إنسانًا ضائعًا، بل قد يكون إنسانًا بدأ يرى أن العالم أوسع من تصوراته.

الشك لا يعني أن ننكر كل شيء، ولا أن نحيا في حالة دائمة من التردد، بل أن نمنح عقولنا الحق في المراجعة، وأن نفهم أن تغيير الرأي ليس خيانة للذات.

فما قيمة العقل إن لم نسمح له بأن يعيد النظر؟

وما قيمة المعرفة إن تحولت إلى جدار يمنعنا من اكتشاف المزيد؟

لعل أكثر ما يجعل الإنسان هشًّا ليس جهله بالحقيقة، بل ثقته المطلقة بأنه امتلكها.

ما الذي يبقى حين يسقط اليقين؟

تخيّل أن تستيقظ يومًا وتكتشف أن فكرة كنت تعتبرها أساس حياتك لم تعد تقنعك، وأن ما كنت تراه واضحًا أصبح مليئًا بالأسئلة.

هل ستشعر بالخوف؟ أم بالتحرر؟

ربما الاثنان معًا.

فحين يسقط اليقين، لا تسقط معه الأفكار وحدها، بل قد تسقط صورة كاملة رسمناها عن أنفسنا وعن العالم. لكن وسط هذا الانهيار، توجد فرصة نادرة: أن نبدأ من جديد، لا بما قيل لنا، بل بما نستطيع فهمه واختباره والتفكير فيه.

ليس مطلوبًا من الإنسان أن يمتلك إجابة عن كل شيء، ولا أن يحوّل حياته إلى رحلة بحث لا تنتهي عن حقيقة مطلقة. ربما يكفي أن يتعلم كيف يعيش مع الأسئلة دون أن يخاف منها.

فالحياة لا تمنحنا دائمًا يقينًا نستند إليه، وأحيانًا لا تمنحنا سوى مساحة واسعة للتأمل والاختيار.

وربما تكمن الحكمة في أن ندرك أن معرفتنا محدودة، وأن عقولنا، مهما اتسعت، ستظل قادرة على اكتشاف أشياء لم تكن تعرف أنها تجهلها.

فهل نحن نبحث عن الحقيقة لنفهم العالم، أم نبحث عنها لنجد مكانًا آمنًا نقف فيه؟

ربما لا توجد إجابة نهائية.

وربما كان هذا هو الدرس الأول الذي تحاول هشاشة اليقين أن تخبرنا به:

أن نتعلم كيف نشك دون أن نضيع، وكيف نؤمن دون أن نتعصب، وكيف نعيش دون أن ندّعي امتلاك الحقيقة كاملة.

فليس كل ما يبدو ثابتًا لا يتغير، وليس كل ما نظنه حقيقة ينجو أمام سؤال صادق.

— نهاية الفصل الأول —

الفصل الثاني: أنا الذي لا أعرفني

«أصعب أنواع الغربة أن يشعر الإنسان بأنه غريب عن نفسه، رغم أنه لم يفارقها يومًا.»

من أكون خلف كل هذه الوجوه؟

هل يعرف الإنسان نفسه حقًا؟

سؤال يبدو بسيطًا للوهلة الأولى، لكنه يحمل في داخله متاهة لا تنتهي. فنحن نقضي أعمارنا في محاولة فهم الآخرين، نحلل كلماتهم، ونراقب تصرفاتهم، ونبحث عن المعاني المختبئة خلف صمتهم، لكننا نادرًا ما نتوقف لنسأل أنفسنا: هل أعرف من أكون فعلًا؟

نحن لا نظهر دائمًا كما نحن. هناك نسخة نقدمها للعالم، ونسخة نحتفظ بها لأنفسنا، ونسخة أخرى لا نجرؤ حتى على الاعتراف بوجودها.

قد نبتسم بينما تتزاحم داخلنا أفكار لا نعرف كيف نشرحها، وقد نتحدث بثقة عن أمور نخشى مواجهتها في أعماقنا. أحيانًا نرتدي الهدوء لأننا لا نريد أن يكتشف أحد فوضانا، ونختار الصمت لأن الكلمات قد تكشف ما حاولنا طويلًا إخفاءه.

لكن، هل هذه الأقنعة تحمينا من العالم، أم أنها تجعلنا نبتعد عن حقيقتنا شيئًا فشيئًا؟

الأقنعة التي نصنعها

منذ اللحظة التي نبدأ فيها بفهم نظرات الآخرين إلينا، نتعلم كيف نراقب أنفسنا من أعينهم.

نحاول أن نكون مقبولين، محبوبين، وأحيانًا مثاليين. نغيّر بعض تصرفاتنا، ونخفي بعض آرائنا، ونؤجل رغباتنا حتى لا نصبح مختلفين عمن حولنا.

ومع مرور الوقت، قد ننسى آن نسآل: هل هذه الحياة تشبهني، آم آنني فقط أتقنت الدور الذي ينتظره الآخرون مني؟

ليس كل قناع نرتديه كذبًا، فبعض الأقنعة وسيلة للتكيف، وبعضها وسيلة للحماية، لكن الخطر يبدأ حين ننسى الوجه الذي كان تحتها.

وحينها لا نعود نعرف إن كنا نعيش لأنفسنا، أم نؤدي حياة اختار الآخرون ملامحها نيابة عنا.

التناقض الذي يسكننا

في داخل كل إنسان عوالم متعارضة.

قد نرغب في العزلة ونخاف الوحدة، نبحث عن الحرية ثم نخشى مسؤولية الاختيار، نريد أن يفهمنا الآخرون لكننا لا نمنحهم فرصة لرؤية ما بداخلنا.

نحن لسنا كائنات بسيطة يمكن اختصارها في صفة واحدة أو موقف واحد.

قد يكون الإنسان قويًا في لحظة، وهشًا في لحظة أخرى. قد يسامح شخصًا، ثم يعجز عن مسامحة نفسه. وقد يعرف الطريق الذي ينبغي أن يسلكه، لكنه يظل واقفًا أمام أول خطوة.

وهذا التناقض لا يعني بالضرورة أننا لا نعرف أنفسنا، بل ربما يعني أننا أكثر تعقيدًا مما تسمح به الكلمات.

فلماذا نصرّ على أن نكون مفهومين دائمًا، بينما نحن أنفسنا لا نفهم كل ما يحدث داخلنا؟

المرآة التي لا تعكس الحقيقة

نقف أمام المرآة ونرى ملامحنا بوضوح، لكن هل تستطيع المرآة أن تخبرنا من نكون؟

إنها تعكس وجوهنا، لا مخاوفنا. تُظهر أعيننا، لكنها لا تكشف ما رأته تلك الأعين. تعكس ابتسامتنا، لكنها لا تعرف إن كانت نابعة من الفرح أم مجرد محاولة لإخفاء الحزن.

وربما نحن أيضًا نعيش داخل مرايا كثيرة؛ مرايا صنعها المجتمع، والعائلة، والتجارب، والذكريات.

كل مرآة تقدم لنا صورة مختلفة، حتى نصبح عاجزين عن تحديد أي الصور أقرب إلينا.

لكن ربما لا توجد صورة واحدة ثابتة للإنسان. ربما نحن في حالة تشكّل مستمرة، نتغير مع التجارب، ونراجع أفكارنا، ونكتشف في أنفسنا أشياء لم نكن نتوقع وجودها.

مواجهة الذات

أصعب مواجهة قد يخوضها الإنسان ليست مع العالم، بل مع نفسه.

أن يعترف بأنه أخطأ، وأن بعض مخاوفه كانت من صنعه، وأن بعض اختياراته لم تكن نابعة من رغبته الحقيقية، وأنه أحيانًا كان يهرب من الإجابة لأنه يعرف أنها ستفرض عليه التغيير.

ومع ذلك، فإن معرفة الذات لا تبدأ من امتلاك إجابات كاملة، بل من امتلاك الشجاعة لطرح الأسئلة التي تجنبناها طويلًا.

من آنا بعيدًا عن آلقابي؟

من أكون عندما لا ينتظر مني أحد شيئًا؟

هل أحب ما أفعله، أم أحب الصورة التي يمنحني إياها؟

وهل أعيش الحياة التي أريدها، أم الحياة التي تعلمت أن أعتبرها مناسبة؟

ربما لن نصل إلى تعريف نهائي لأنفسنا، وربما لا ينبغي لنا ذلك.

فقد يكون الإنسان رحلة لا تنتهي، وليس إجابة جاهزة.

وفي النهاية، ربما لا تكون أصعب رحلة هي أن نكتشف العالم، بل أن نكتشف ذلك الغريب الذي يسكن داخلنا، ويحمل اسمنا، ويعيش معنا كل يوم، ومع ذلك لا نعرفه تمامًا.

— نهاية الفصل الثاني —

الفصل الثالث: وحدة الإنسان

حين لا يفهمك أحد، حتى أنت

«ليست الوحدة أن تجلس وحيدًا، بل أن تحمل في داخلك عالمًا كاملًا، ولا تجد من يستطيع العبور إليه.»

الوحدة التي لا يراها أحد

ليست كل وحدة مرتبطة بغياب الأشخاص، فهناك من يعيش وسط عائلة كبيرة، ويحيط به الأصدقاء، وتملأ الأصوات يومه، ومع ذلك يشعر بأن شيئًا ما ينقصه.

كأن بينه وبين العالم جدارًا شفافًا؛ يرى الجميع، يسمعهم، يشاركهم أحاديثهم وضحكاتهم، لكنه لا يستطيع أن يجعل أحدًا يرى ما يحدث خلف ذلك الجدار.

قد يمر يومه بصورة طبيعية، يجيب عن الأسئلة، ويبتسم في اللحظات المناسبة، ثم يعود في نهاية اليوم إلى نفسه، حيث تبدأ الأسئلة التي لم يجد لها مكانًا طوال النهار.

لماذا أشعر بهذا الفراغ؟ لماذا لا أستطيع شرح ما بداخلي؟ وهل هناك من يشعر بما أشعر به، لكنه يخفيه بالطريقة نفسها؟

ربما تكون الوحدة أحيانًا ليست غياب الآخرين، بل غياب الشعور بأن أحدًا يراك كما أنت.

المسافة بين الأرواح

نحن نتحدث كثيرًا، لكن هل نتواصل حقًا؟

نتبادل الكلمات كلَ يوم، نحكي عن الأحداث، ونناقش التفاصيل الصغيرة، لكننا نادرًا ما نكشف ما يحدث في أعماقنا.

ليس لأننا لا نملك ما نقوله، بل لأن بعض المشاعر تبدو أكبر من اللغة، وبعض التجارب يصعب نقلها إلى شخص لم يعشها.

قد تحاول آنٍ تشرح آلمَا يسكنك، فتجد الكلمات عاجزة عن حمله، وقد تتحدث طويلًا دون أن تشعر أنك وصلت إلى المعنى الذي أردت إيصاله.

وهكذا تنشأ مسافة غريبة بين البشر، مسافة لا تُقاس بالأماكن، بل بمدى قدرة كل إنسان على فهم العالم الداخلي للآخر.

فهل يمكن لإنسان أن يفهم إنسانًا آخر بالكامل؟

أم أننا مهما اقتربنا سنظل نحتفظ بجزء لا يستطيع أحد الوصول إليه؟

حين تصبح الوحدة ملجأً

ليس كل ابتعاد هروبًا، وليس كل صمت ضعفًا.

أحيانًا يحتاج الإنسان إلى الابتعاد قليلًا، لا لأنه يكره العالم، بل لأنه تعب من محاولة تفسير نفسه أمامه.

في العزلة مساحة يستطيع فيها أن يسمع أفكاره دون مقاطعة، وأن يواجه مخاوفه دون أن يضطر إلى ارتداء وجه يناسب الآخرين.

لكن هناك فرقًا بين أن تختار الوحدة لتفهم نفسك، وبين أن تصبح الوحدة المكان الوحيد الذي تستطيع العيش فيه.

فالأولى قد تكون طريقًا نحو اكتشاف الذات، أما الثانية فقد تتحول إلى جدار يمنعك من الاقتراب حتى ممن يريدون فهمك.

وربما لا تكمن المشكلة في أن نحتاج إلى الآخرين، بل في أن ننسى كيف نكون بخير مع أنفسنا عندما لا يكونون موجودين.

الخوف من أن نُفهم

قد يبدو الأمر متناقضًا، لكن الإنسان لا يخاف دائمًا من ألا يفهمه الآخرون؛ أحيانًا يخاف أن يفهموه فعلًا.

أن يرى أحدهم نقاط ضعفه التي أخفاها، أو يكتشف مخاوفه التي لم يعترف بها، أو يلاحظ التناقضات التي يحاول طوال الوقت إخفاءها.

فأن تكون مفهومًا يعني أحيانًا أن تصبح مكشوفًا، وأن تسمح لشخص آخر برؤية أجزاء منك لم تعتد مشاركتها.

ولهذا نبني حدودًا حول أرواحنا، نسمح للبعض بالاقتراب، ونمنع آخرين، ونترك مساحات لا يدخلها أحد.

لكن السؤال الذي يستحق التأمل هو: هل نحمي أنفسنا بهذه الحدود، أم نحرمها من فرصة أن تُفهم وتُحتضن؟

مصالحة الإنسان مع وحدته

ربما لا نستطيع أن نجد شخصًا يفهم كل تفاصيلنا، وربما لن يحدث أن يلتقي عالمنا الداخلي بعالم شخص آخر بصورة كاملة.

لكن هذا لا يعني أننا محكومون بالوحدة.

يمكننا أن نتعلم التعبير عما نشعر به، وأن نمنح الآخرين فرصة الاقتراب، وأن نتقبل أن الفهم الإنساني ليس كاملًا دائمًا، لكنه قد يكون صادقًا وجميلًا رغم نقصه.

كما يمكننا أن نتعلم ألا نجعل وجود الآخرين المقياس الوحيد لقيمتنا أو لسلامنا الداخلي.

فالإنسان يحتاج إلى التواصل، لكنه يحتاج أيضًا إلى أن يتصالح مع نفسه، وأن يتوقف عن اعتبار كل لحظة صمت دليلًا على أنه منسي أو غير محبوب.

سؤال أخير

إذا كان لكل إنسان عالم داخلي لا يستطيع الآخرون رؤيته بالكامل، فهل نحن نعيش مع بعضنا حقًا، أم أننا نعيش بجانب بعضنا فقط؟

ربما تكون الحقيقة أننا نلتقي، ونقترب، ونحاول الفهم، لكن يبقى داخل كل واحد منا جزء لا يمكن نقله كما هو إلى شخص آخر.

وربما لا تكون مهمتنا أن نجد من يفهمنا بالكامل، بل أن نجد من يحاول فهمنا دون أن يطالبنا بأن نكون أشخاصًا آخرين.

فأقسى أنواع الوحدة ليست أن لا تجد أحدًا بجانبك، بل أن تفقد القدرة على الشعور بأنك موجود حتى وأنت بين الجميع.

— نهاية الفصل الثالث —

الفصل الرابع: سجن الزمن

هل نحن نعيش أم ننتظر؟

«نقضي أعمارنا في انتظار الغد، حتى يصبح الأمس هو الشيء الوحيد الذي نملكه.»

وهم الوقت

يمر الزمن بطريقة غريبة؛ لا نسمع خطواته، ولا نراه وهو يعبر أيامنا، لكننا نكتشف أثره في كل شيء.

في الوجوه التي تتغير، وفي الأماكن التي لم تعد تشبه ذكرياتنا، وفي الأشخاص الذين كانوا يوما جزءًا من تفاصيلنا ثم أصبحوا مجرد أسماء نتذكرها بصمت.

نستيقظ كل صباح وكأن أمامنا عمرًا طويلًا، نؤجل الأشياء التي نحبها، ونؤخر الكلمات التي نريد قولها، ونقنع أنفسنا بأن الوقت ما زال متاحا.

لكن من أخبرنا أن الغد وعدٌ مضمون؟

لماذا نتعامل مع الوقت وكأنه ملك لنا، بينما الحقيقة أننا لا نملك منه إلا اللحظة التي نعيشها؟

نحن أسرى الماضي

هناك أشخاص يعيشون في ذكريات انتهت، يحملون مواقف قديمة كأنها تحدث الآن، ويعيدون في عقولهم حوارات لم يستطيعوا إكمالها.

يتمنون لو عادوا إلى لحظة معينة، لو قالوا كلمة مختلفة، لو اتخذوا قرارًا آخر، أو لو احتفظوا بشخص لم يعد موجودًا.

لكن الماضي لا يتغير مهما أعدنا التفكير فيه.

ومع ذلك، نمنحه أحيانًا سلطة أكبر من الحاضر، فنسمح لحدث انتهى منذ سنوات أن يحدد سعادتنا اليوم.

فهل نحن نتذكر الماضي، أم أننا نعيد العيش داخله؟

ربما لا يؤلمنا ما حدث فقط، بل يؤلمنا عجزنا عن العودة إليه وتغييره.

قلق المستقبل

وعلى الجانب الآخر، هناك منٍ لا يستطيع العيش في اللحظة الحالية، لأن عقله مشغول بما قد يحدث غدا.

يخاف من خسارة لم تقع، ويحزن على احتمالات لم تصبح واقعًا، ويضع في خياله نهايات كثيرة لأشياء لم تبدأ بعد.

كأن الإنسان يمتلك قدرة غريبة على معاقبة نفسه بأحداث لم تحدث.

نخطط، ونحلم، ونحاول الاستعداد لكل الاحتمالات، لكننا ننسى أن المستقبل ليس مساحة نتحكم فيها بالكامل.

فكم من مرة أفسدنا يومًا جميلًا خوفًا من يوم سيئ لم يأتِ؟

وكم من لحظة جميلة لم نعشها لأن عقولنا كانت مشغولة بما ينتظرنا؟

اللحظة التي لا ننتبه إليها

الغريب أننا نبحث دائمًا عن اللحظات الكبيرة التي نعتقد أنها ستمنح حياتنا معناها.

ننتظر النجاح، والسفر، والحب، وتحقيق الأحلام، وننسى أن الحياة لا تتكون من الأحداث الاستثنائية وحدها.

إنها أيضًا كوب قهوة في صباح هادئ، ومحادثة صادقة، وضحكة عابرة، ونافذة يدخل منها ضوء الشمس.

قد نكتشف بعد سنوات أن أكثر اللحظات التي اشتقنا إليها لم تكن لحظات عظيمة، بل تفاصيل عادية لم نعرف قيمتها عندما عشناها.

وهنا تظهر مفارقة الإنسان: لا يدرك أحيانًا قيمة اللحظة إلا بعد أن تتحول إلى ذكرى.

هل الزمن عدوّنا؟

نلوم الزمن لأنه يغيّر الأشياء، ونحزن لأنه يأخذ منا ما اعتدنا وجوده، لكن هل الزمن هو المسؤول فعلًا عن كل ما نفقده؟

أم أننا نريد من الحياة أن تبقى كما عرفناها، رغم أن التغيير جزء لا ينفصل عن وجودنا؟

ربما لا يكون الزمن عدوًا، بل مرآة تكشف لنا أن لا شيء يظل ثابتًا.

فالطفولة لا تعود، والأشخاص يتغيرون، والفرص تتبدل، وحتى نحن لا نبقى الأشخاص أنفسهم الذين كنا عليهم بالأمس.

وقد تكون المشكلة أننا نطلب من الزمن أن يتوقف عند اللحظات التي أحببناها، بينما ننسى أن توقفه يعني توقف الحياة نفسها.

الخلاصة: لا تؤجل وجودك

لسنا مطالبين بأن نعيش كل لحظة بطريقة مثالية، ولا بأن نتوقف عن التخطيط للمستقبل أو التفكير في الماضي.

لكن علينا أن نفهم الفرق بين أن نتعلم من الماضي وأن نسكنه، وبين أن نستعد للمستقبل وأن نضيع الحاضر بانتظاره.

فالوقت لا يعود، وهذه ليست دعوة للخوف، بل دعوة للانتباه.

أن نقول الكلمات التي تستحق أن تُقال، وأن نمنح الأشياء الجميلة وقتًا، وأن نتوقف عن تأجيل حياتنا حتى يأتي اليوم الذي نظن أنه سيكون مثاليًا.

فربما لا تكمن مأساة الإنسان في أن الزمن قصير، بل في أنه يقضي جزءًا كبيرًا منه منتظرًا أن تبدأ حياته، دون أن ينتبه إلى أنها بدأت بالفعل.

— نهاية الفصل الرابع —

الفصل الخامس: الخوف من الحرية

حين تصبح الاختيارات عبئًا

«قد لا يكون السجن دائمًا جدرانًا تحيط بنا، فقد يكون فكرة نخشى الخروج منها.»

الحرية التي نطلبها ونخافها

يبدو الإنسان كائنًا يبحث عن الحرية باستمرار؛ يريد أن يختار طريقه، وأن يفكر كما يشاء، وأن يعيش دون أن تفرض عليه الحياة شكلًا محددًا من الوجود.

لكن ثمة مفارقة تستحق التأمل: لماذا نخاف أحيانًا من الحرية التي نطالب بها؟

ربما لأن الحرية لا تأتي وحدها، بل تحمل معها مسؤولية الاختيار، وثقل القرارات، واحتمالية الخطأ.

حين يختار الآخرون عنا، نستطيع أن نلومهم إذا فشلنا، وأن نختبئ خلف الظروف إذا لم نحصل على ما نريد. أما حين نختار بأنفسنا، نصبح أمام حقيقة لا يمكن الهروب منها: نحن مسؤولون عن الطريق الذي نسلكه.

وهنا تتحول الحرية من حلم جميل إلى سؤال ثقيل.

هل نريد فعلًا أن نكون أحرارًا، أم نريد فقط أن نتخلص من القيود دون أن نتحمل مسؤولية ما يأتي بعدها؟

الخوف من الاختيار

كل قرار نتخذه يفتح أمامنا طريقًا، لكنه في الوقت نفسه يغلق طرقًا أخرى.

وهذا ما يجعل الاختيار مؤلمًا أحيانًا؛ فنحن لا نخاف دائمًا من القرار الخاطئ، بل نخاف من الاحتمالات التي سنتخلى عنها عندما نختار.

قد يقف الإنسان أمام فرصة طال انتظارها، ثم يتردد في اغتنامها. ليس لأنه لا يريدها، بل لأنه بدأ يتخيل كل ما قد يخسره بسببها.

ماذا لو فشلت؟ ماذا لو ندمت؟ ماذا لو كان الطريق الآخر أفضل؟

وهكذا يصبح التفكير في الاحتمالات وسيلة لتأجيل الحياة.

نقضي وقتًا طويلًا في محاولة الوصول إلى القرار المثالي، متناسين أن بعض القرارات لا نعرف إن كانت صحيحة إلا بعد أن نعيش نتائجها.

فهل يوجد اختيار خالٍ من الندم؟

أم أننا نبحث عن ضمان لا تستطيع الحياة أن تمنحنا إياه؟

القيود غير المرئية

ليست جميع القيود مفروضة بالقوة. بعضها يتسلل إلى أفكارنا حتى نبدأ بالدفاع عنه وكأنه جزء من طبيعتنا.

قد يمنع الإنسان نفسه من تجربة شيء جديد خوفًا من كلام الناس، وقد يتخلى عن حلم لأنه لا يتناسب مع الصورة التي رسمها الآخرون له.

وقد يستمر في طريق لا يشبهه، فقط لأنه يخشى أن يعترف بأنه لم يعد يريد السير فيه.

والأغرب أننا أحيانًا نعتاد القيود إلى درجة أننا نشعر بالقلق عندما تختفي.

فالإنسان قد يتأقلم مع حياة لا يحبها، حتى يصبح التغيير نفسه مصدر خوف بالنسبة إليه.

لكن السؤال هنا:

إذا اعتدنا القيد طويلًا، فهل يعني ذلك أننا أصبحنا أحرارًا داخله؟

أم أننا فقط فقدنا القدرة على تخيل الحياة خارجه؟

الحرية ليست غياب الحدود

قد يظن البعض آن الحرية تعني آن يفعل الإنسان كل ما يرغب فيه، دون حساب أو تفكير.

لكن هل كل رغبة تستحق أن نتبعها؟

وهل يستطيع الإنسان أن يكون حرًا إذا كان عاجزًا عن التحكم في اندفاعاته ومخاوفه؟

ربما تكون الحرية الحقيقية أعمق من مجرد غياب الممنوعات. إنها القدرة على الاختيار بوعي، وفهم نتائج القرارات، والتمييز بين ما نريده فعلًا وما نرغب فيه للحظة عابرة.

فالإنسان الذي تتحكم فيه رغباته دون أن يفهمها قد يكون أسيرًا لها، حتى لو لم يمنعه أحد من فعل شيء.

والإنسان الذي يستطيع قول «لا» لما لا يشبهه، قد يكون أكثر حرية ممن يمتلك آلاف الخيارات ولا يعرف أيها يريد.

ثمن أن تكون نفسك

أن تختار حياتك بنفسك قد يعني أن تختلف، وأن تخيب توقعات البعض، وأن تسير في طريق لا يفهمه الجميع.

وقد يعني أيضًا أن تتحمل نتائج قراراتك دون البحث الدائم عن شخص تلقي عليه اللوم.

لكن هناك ثمنًا آخر لا يقل قسوة: أن تعيش حياة لا تشبهك، فقط حتى لا تخسر رضا الآخرين.

فكم من إنسان تخلى عن رغباته حتى أصبح غريبًا عن أحلامه؟

وكم من شخص أمضى سنوات في إرضاء الجميع، ثم اكتشف أنه الشخص الوحيد الذي لم يسأله أحد عما يريد؟

ربما لا نستطيع أن نرضي العالم كله، لكننا نستطيع على الأقل أن نتوقف عن خيانة أنفسنا في كل مرة نخاف فيها من الاختلاف.

الخلاصة: الحرية مسؤولية قبل أن تكون امتيازًا

قد لا نستطيع التحكم في كل الظروف التي نولد فيها، ولا في كل الأحداث التي تعبر حياتنا، لكننا نستطيع أن نراجع أفكارنا، وأن نعيد النظر في اختياراتنا، وأن نبحث عن مساحة نكون فيها أكثر صدقًا مع أنفسنا.

الحرية ليست طريقًا خاليًا من الخوف، بل ربما تكون السير رغم وجوده.

وليست ضمانًا بأننا لن نخطئ، بل اعترافًا بأن الخطأ جزء من التجربة الإنسانية.

فليس مطلوبًا منا أن نعرف الطريق كاملًا قبل أن نبدأ، ولا أن نمتلك يقينًا مطلقًا قبل اتخاذ أي قرار.

فربما يكون أصعب سجن هو ذلك الذي نبنيه بأيدينا، ثم نقضي أعمارنا في انتظار شخص يأتي ليحررنا منه، بينما المفتاح كان في أيدينا طوال الوقت.

— نهاية الفصل الخامس —

الفصل السادس: الحب بوصفه سؤالًا فلسفيًا

«ربما لا نحب الأشخاص كما هم دائمًا، بل نحب المعاني التي نمنحهم إياها، والصور التي نرسمها لهم في عقولنا.»

ما الحب في حقيقته؟

منذ أن عرف الإنسان المشاعر، حاول أن يفهم الحب ويمنحه تعريفًا واضحًا، لكنه ظل شعورًا عصيًّا على التفسير الكامل.

نقول إننا نحب شخصًا، لكن ماذا يعني ذلك حقًا؟

هل نحب وجوده؟ صوته؟ تفاصيله الصغيرة؟ أم نحب الشعور الذي يتولد داخلنا عندما يكون قريبًا؟

قد يكون الحب رغبة في مشاركة الحياة مع شخص آخر، وقد يكون شعورًا بالانتماء، أو محاولة للعثور على جزء من أنفسنا في روح مختلفة.

لكن السؤال الأعمق هو: هل نحب الآخر لأنه هو، أم لأنه يمنحنا شيئًا نفتقده داخلنا؟

ربما لا توجد إجابة واحدة، فالحب ليس شعورًا بسيطًا يمكن وضعه داخل تعريف، بل تجربة تتداخل فيها الرغبة والخوف والاحتياج والاختيار.

هل نحب الأشخاص أم صورهم؟

أحيانًا لا نقع في حب الإنسان كما هو، بل نقع في حب الصورة التي صنعناها عنه.

نختار من تصرفاته ما يؤكد توقعاتنا، ونفسر صمته بالطريقة التي نتمناها، ونمنحه صفات ربما لم يمتلكها يومًا.

ثم تأتي الحقيقة، وتبدأ الصورة بالتصدع.

نكتشف أن الشخص الذي ظنناه مختلفًا يحمل عيوبًا وتناقضات، وأنه ليس دائمًا كما تخيلناه.

وهنا تبدأ واحدة من أصعب لحظات الحب: لحظة مواجهة الإنسان الحقيقي بدلًا من الصورة التي أحببناها.

فهل نستطيع أن نحب شخصًا بعد أن نراه دون أوهام؟

أم أن بعض العلاقات لا تعيش إلا ما دامت المسافة بين الحقيقة والخيال قائمة؟

الحب والخوف من الفقد

كلما أصبح شيء ما عزيزًا علينا، أصبح احتمال فقدانه أكثر إيلامًا.

نبدأ بالخوف من التغيير، ومن المسافة، ومن الصمت، ومن الأشياء الصغيرة التي قد تحمل في داخلها معنى الرحيل.

وقد يتحول الحب أحيانًا إلى مراقبة مستمرة، ومحاولة لمعرفة كل التفاصيل، والبحث عن ضمانات بأن الآخر لن يبتعد.

لكن هل يمكن ضمان بقاء أحد؟

الحياة متغيرة، والإنسان متغير، والعلاقات نفسها تمر بمراحل لا يمكن التنبؤ بها.

وربما تكمن المفارقة في أننا نحاول حماية الحب من الفقد بطريقة قد تخنقه دون أن نشعر.

فنتمسك أكثر مما ينبغي، ونطلب تأكيدات لا تنتهي، وننسى أن العلاقة التي تحتاج إلى السيطرة كي تستمر قد تكون فقدت شيئًا من معناها.

أين ينتهي الحب ويبدأ التعلق؟

ليس كل اشتياق دليل حب، وليس كل خوف من الفقد تعبيرًا عن عمق المشاعر.

أحيانًا يتعلق الإنسان بشخص لأنه اعتاد وجوده، أو لأنه يخشى الوحدة، أو لأنه لا يستطيع تخيل حياته خارج العلاقة.

وهنا يصبح السؤال ضروريًا:

هل أريد هذا الإنسان لأنه يجعلني سعيدًا، أم لأنني أخاف أن أكون بدونه؟

الحب لا يعني أن يفقد الإنسان ذاته داخل شخص آخر، ولا أن تصبح حياته معلقة بمزاجه وقراراته.

فالعلاقة الصحية لا تطلب منك أن تختفي حتى يبقى الآخر، ولا أن تتنازل عن كرامتك حتى تثبت إخلاصك.

ربما يكون الحب الحقيقي مساحة يلتقي فيها شخصان دون آن يلغي أحدهما وجود الآخر.

هل الحب اختيار أم شعور؟

قد يبدأ الحب دون تخطيط، ودون أن نعرف لماذا انجذبنا إلى شخص دون غيره.

لكن استمرار العلاقة يحتاج إلى ما هو أبعد من الشعور الأول.

يحتاج إلى الاحترام، والصدق، والتفاهم، والقدرة على مواجهة الاختلاف.

فالمشاعر قد تتغير، وقد تمر العلاقات بأيام صعبة، لكن ما يمنحها فرصة للاستمرار هو الطريقة التي يختار بها الطرفان التعامل مع تلك التغيرات.

ربما لا نختار دائمًا من نحب، لكننا نملك مسؤولية كبيرة تجاه الطريقة التي نحب بها.

الخلاصة: أن تحب دون أن تفقد نفسك

ربما لا يكون الحب امتلاك شخص، ولا ضمان بقائه إلى الأبد، ولا العثور على إنسان كامل لا يخطئ.

ربما يكون الحب أن ترى إنسانًا على حقيقته، بضعفه وقوته، دون أن تحاول تحويله إلى نسخة صنعتها في خيالك.

أن تمنحه مساحة ليكون نفسه، وأن تحتفظ أنت أيضًا بحقك في أن تكون نفسك.

فالحب الذي يجعلك غريبًا عن ذاتك يستحق أن تتوقف أمامه طويلًا، والحب الذي يمنحك مساحة للنمو قد يكون من أجمل التجارب التي يعيشها الإنسان.

فهل نحب لأننا وجدنا من يكمل نقصنا، أم لأننا وجدنا من نستطيع أن نشاركه اكتمالنا دون أن نفقد أنفسنا؟

ربما لا تكون الإجابة في الكلمات، بل في الطريقة التي نعيش بها الحب.

— نهاية الفصل السادس —

الفصل السابع: الموت ومعنى الحياة

هل نعيش لأننا سنموت؟

«ربما لا يخيفنا الموت بقدر ما يخيفنا أن نكتشف أننا لم نعش كما أردنا.»

الحقيقة التي نهرب منها

هناك حقيقة يعرفها كل إنسان، لكنه نادرًا ما يسمح لنفسه بالتفكير فيها طويلًا: أننا جميعًا نسير نحو نهاية لا نعرف موعدها.

نعيش أيامنا وكأنها امتداد لا ينتهي، نخطط للسنوات القادمة، ونؤجل أحلامنا، ونؤجل الاعتذار، ونؤجل الاعتراف بالمشاعر، وكأن الحياة وعدٌ مفتوح لا يمكن أن ينتهي فجأة.

لكن الموت لا ينتظر آن ننتهي من خططنا.

إنه الحقيقة الوحيدة التي لا تستطيع رغباتنا تغييرها، ولا تستطيع أموالنا أو مكانتنا أو معرفتنا أن تجعلنا خارج حدودها.

ومع ذلك، نحاول إبعاده عن أفكارنا، كأن تجاهله قد يجعله أقل حضورًا.

لكن لماذا نخاف التفكير في النهاية؟

هل لأننا نخاف فقدان الحياة نفسها، أم لأننا نخاف أن نغادرها قبل أن نفهمها؟

الخوف من المجهول

ربما يكون أكثر ما يجعل الموت مخيفًا هو أنه يأخذنا إلى مساحة لا نملك عنها معرفة يقينية.

نحن نعرف كيف تبدأ الحياة من حولنا، ونشاهد مراحلها تتغير، لكن النهاية تظل سؤالًا يثير في الإنسان مشاعر متناقضة.

هناك من يخاف الفقد، ومن يخاف المجهول، ومن يخشى أن يترك خلفه أشخاصًا يحبهم، وأحلامًا لم تكتمل، وكلمات لم تجد طريقها إلى أصحابها.

وربما لا يكون الخوف من الموت خوفًا من التوقف فقط، بل خوفًا من كل الأشياء التي لن نحصل على فرصة أخرى لفعلها.

فكم من شخص رحل وفي داخله اعتذار لم يقله؟

وكم من حلم بقي حبيس صاحبه لأنه ظن أن الوقت ما زال طويلًا؟

وكم من إنسان آدرك قيمة لحظاته بعد آن آصبحت ذكريات لا يستطيع العودة إليها؟

هل النهاية تمنح الحياة قيمتها؟

تخيل حياة لا تنتهي، عمرًا ممتدًا بلا حدود، لا توجد فيه نهاية قريبة ولا خوف من نفاد الوقت.

هل ستصبح الحياة أكثر جمالًا، أم ستفقد بعضًا من معناها؟

ربما يمنحنا إدراك النهاية شعورًا مختلفًا بقيمة الأشياء.

فاللحظة تصبح ثمينة لأنها لا تتكرر بالطريقة نفسها، واللقاء يصبح مهمًا لأن الأشخاص ليسوا خالدين، والوقت يصبح أكثر قيمة لأننا لا نعرف كم بقي منه.

قد لا تكون محدودية الحياة أمرًا جميلًا في ذاتها، لكنها تجعلنا أكثر انتباهًا إلى ما نملكه الآن.

نحن لا نقدر كل شيء لأنه موجود، بل أحيانًا لأننا ندرك أنه قابل للفقد.

وهنا تظهر مفارقة الإنسان: قد يقضي عمره في البحث عن حياة أطول، بينما ينسى أن يسأل نفسه كيف يجعل حياته الحالية أكثر معنى.

الأثر الذي نتركه

إذا كان الإنسان لا يستطيع البقاء إلى الأبد، فهل يعني ذلك أن وجوده ينتهي تمامًا بمجرد رحيله؟

ربما لا.

هناك أشخاص يغادرون، لكن كلماتهم تبقى في ذاكرة الآخرين، ومواقفهم تستمر في التأثير، وأفعالهم تترك أثرًا يتجاوز اللحظة التي حدثت فيها.

قد لا نتذكر تفاصيل كل من مروا في حياتنا، لكننا نتذكر كيف جعلونا نشعر، وما الذي تعلمناه منهم، وكيف تغيرنا بعد لقائهم.

أحيانًا تكون كلمة واحدة قالها شخص ما كافية لترافق إنسانًا سنوات طويلة.

وربما لا يقاس أثر الإنسان بعدد الأشخاص الذين عرفوه، بل بما تركه في نفوس من التقاهم.

لكن هل ينبغي أن نعيش من أجل أن يتذكرنا الآخرون؟

أم أن قيمة الحياة لا تحتاج دائمًا إلى شاهد؟

ربما يكفي أن تكون قد عشت بصدق، وأن تكون قد منحت وجودك معنى بالنسبة إليك، حتى لو لم يعرف العالم قصتك كاملة.

الحياة بين الندم والامتنان

من أغرب ما يفعله الإنسان أنه لا ينتبه أحيانًا إلى قيمة الأشياء إلا عندما يفقدها.

نتذمر من الأيام العادية، ونشتاق لاحقًا إلى تفاصيلها. نتمنى أن تنتهي بعض المراحل بسرعة، ثم نكتشف أننا كنا نعيش أيامًا لن تتكرر.

نبحث عن السعادة في المستقبل، ونقارن حاضرِنا بماضٍ أصبح أجمل في ذاكرتنا، وننسى أن اللحظة الحالية قد تصبح يومًا ما الشيء الذي سنشتاق إليه.

لكن الحياة لا تنتظر حتى نتعلم تقديرها.

ولهذا ربما علينا أن نعيد النظر في علاقتنا بالأيام العادية، وأن نفهم أن الحياة ليست فقط اللحظات التي تغير مصيرنا، بل أيضًا التفاصيل الصغيرة التي تمنح وجودنا دفئًا.

الخلاصة: أن نعيش قبل أن يصبح كل شيء ذكرى

ليس المطلوب أن نفكر في الموت طوال الوقت، أو أن نحول حياتنا إلى انتظار خائف للنهاية.

بل أن نفهم أن معرفة محدودية الحياة يجب ألا تسلبنا القدرة على الاستمتاع بها.

أن نحب دون تأجيل دائم، وأن نسعى دون أن ننسى أنفسنا، وأن نتصالح مع أخطائنا، وأن نمنح أحلامنا فرصة قبل أن تتحول إلى أمنيات مؤجلة.

فربما لا نستطيع اختيار موعد النهاية، لكننا نستطيع أن نكون أكثر وعيًا بالطريقة التي نقضي بها أيامنا.

وفي النهاية، قد لا يكون السؤال الأهم: كم سنة سنعيش؟ بل: ماذا فعلنا بالسنوات التي مُنحت لنا؟

فالحياة لا تصبح ذات معنى لأنها طويلة، ولا تفقد قيمتها لأنها قصيرة؛ بل لأن كلِ إنسان يحمل مسؤولية البحث عن المعنى الذي يجعل وجوده جديرًا بأن يعاش.

— نهاية الفصل السابع —

الفصل الثامن: وهم السعادة

«ربما لا تكون السعادة شيئًا نصل إليه، بل لحظة نتوقف فيها عن الهروب من حياتنا.»

هل السعادة هدف نصل إليه أم وهم نلاحقه؟

منذ بداية التاريخ، والإنسان يطارد السعادة. يظن أنها تسكن في مكان بعيد، أو تنتظره في نهاية طريق طويل، أو أنها ستظهر حين تتحقق أمنية مؤجلة.

نقول لأنفسنا: سأكون سعيدًا حين أنجح، حين أمتلك ما أريد، حين أجد الشخص المناسب، حين أتخلص من مشكلاتي، وحين تصبح الحياة أكثر لطفًا.

لكن الغريب أننا كلما وصلنا إلى شيء انتظرناه طويلًا، ظهر أمامنا شيء آخر نعتقد أن سعادتنا متوقفة عليه.

فهل المشكلة أننا لم نصل بعد؟ أم أننا اعتدنا أن نؤجل سعادتنا إلى مستقبل لا يأتي كما نتخيله؟

ربما لا تكون السعادة بعيدة عنا كما نعتقد، بل نحن الذين نضعها دائمًا في مكان آخر.

السعادة شعور عابر أم حالة دائمة؟

نحن نتصور أحيانًا أن الإنسان السعيد هو الذي يضحك دائمًا، ولا يحزن، ولا يقلق، ولا يعرف الانكسار.

لكن هذه الصورة ليست إنسانية؛ فالإنسان ليس شعورًا واحدًا، بل مجموعة من المشاعر المتناقضة.

قد نضحك في يوم ونبكي في اليوم نفسه، وقد نشعر بالامتنان رغم وجود شيء يؤلمنا، وقد نعيش لحظة جميلة بينما نحمل في داخلنا أسئلة لم نجد لها إجابة.

السعادة لا تعني غياب الحزن، كما أن الحزن لا يعني غياب الحياة.

ربما تكون السعادة لحظات صغيرة لا ننتبه إليها إلا بعد مرورها: حديث صادق، كوب قهوة في صباح هادئ، شخص يسأل عنا، أو ليلة ننام فيها دون أن نحارب أفكارنا.

نحن نبحث عن السعادة الكبيرة، وننسى أن الحياة تتكون من تفاصيل صغيرة.

لماذا نقارن حياتنا بحياة الآخرين؟

في زمن أصبحت فيه حياة الناس معروضة أمام أعيننا، صرنا نقارن أيامنا العادية بلحظاتهم المختارة.

نرى نجاحاتهم ولا نرى خوفهم، نرى ابتساماتهم ولا نعرف ما يخفونه خلفها، ونشاهد أجمل ما لديهم ثم نحاكم حياتنا على أساسه.

وهكذا تتحول المقارنة إلى ميزان ظالم؛ لأننا نقارن حقيقتنا بصورة لا نعرف إن كانت كاملة أصلًا.

قد يمتلك شخص ما ما نحلم به، لكنه يتمنى شيئًا نملكه نحن دون أن نشعر بقيمته.

وكلما جعلنا حياة الآخرين مقياسًا لحياتنا، ابتعدنا عن معرفة ما نريده فعلًا.

فالسعادة ليست أن نكون أفضل من غيرنا، بل أن نتوقف عن قياس أنفسنا بطرق لا تشبهنا.

هل المال والنجاح يمنحان الإنسان السعادة؟

لا يمكن إنكار أن المال يمنح الإنسان قدرًا من الأمان، وأن النجاح قد يمنحه شعورًا بالإنجاز والرضا.

لكن هل يكفي ذلك ليكون سعيدًا؟

قد يمتلك الإنسان بيتًا واسعًا، لكنه لا يجد فيه راحته. وقد يصل إلى منصب عظيم، لكنه يشعر بأنه فقد نفسه في الطريق إليه.

المشكلة ليست في المال أو النجاح، بل في أن نحمّلهما مسؤولية منحنا معنى الحياة كله.

فالمال قد يشتري الراحة، لكنه لا يضمن الطمأنينة. والنجاح قد يمنحنا التقدير، لكنه لا يضمن أن نكون راضين عن أنفسنا.

ليس خطأً أن نطمح إلى الأفضل، لكن الخطأ أن نؤجل إنسانيتنا حتى نصل إليه.

لماذا نركض خلف شيء لا نعرف متى سنصل إليه؟

ربما اعتدنا أن نعيش وفق قائمة طويلة من الشروط:

حين أحقق هذا، سأرتاح. حين أتجاوز ذلك، سأبدأ حياتي. حين أصبح شخصًا أفضل، سأحب نفسي.

لكن الحياة لا تنتظر اكتمال شروطنا.

كلما انتهينا من مرحلة، بدأت أخرى، وكلما حققنا حلمًا ظهر حلم جديد.

وهكذا قد نقضي أعمارنا نستعد للحياة بدلًا من أن نعيشها.

كم من لحظة جميلة أفسدناها لأننا كنا نفكر في الغد؟ وكم من نعمة لم نشعر بها لأن أعيننا كانت معلقة بما ينقصنا؟

ربما نحتاج أحيانًا إلى أن نتوقف، لا لأن الطريق انتهى، بل لأننا نسينا أن ننظر حولنا ونحن نسير.

هل يمكن أن يكون الإنسان سعيدًا رغم حزنه؟

نعم، لأن السعادة ليست وعدًا بحياة خالية من الألم.

قد يحمل الإنسان حزنًا قديمًا، ومع ذلك يجد سببًا للاستمرار. وقد يخسر شيئًا عزيزًا، لكنه يظل قادرًا على محبة أشياء أخرى.

ليس مطلوبًا منا أن ننكر جراحنا كي نكون سعداء، ولا أن نتظاهر بالقوة طوال الوقت.

أحيانًا تكون المصالحة مع الحزن جزءًا من السلام الداخلي؛ أن نعترف بما يؤلمنا دون أن نسمح له بأن يختصر حياتنا كلها.

فالإنسان يستطيع أن يكون مكسورًا في جانب، وممتنًا في جانب آخر. يستطيع أن يفتقد شخصا، ويحب الحياة في الوقت نفسه.

لسنا مضطرين إلى اختيار شعور واحد كي نكون صادقين مع أنفسنا.

الخلاصة: السعادة في المعنى لا في الكمال

ربما لن نجد يومًا حياة مثالية، ولن تختفي كل مخاوفنا، ولن تتحقق جميع الأمنيات التي نحملها.

لكن يمكننا أن نتعلم كيف نعيش دون انتظار الكمال.

أن نحب دون أن نضمن البقاء، وأن نحلم دون أن نحتقر حاضرنا، وأن نحزن دون أن نفقد قدرتنا على الفرح.

السعادة ليست امتلاك كل شيء، بل أن نعرف قيمة ما نملكه، وأن نمنح حياتنا معنى يتجاوز الأشياء التي يمكن أن نفقدها.

وفي النهاية، قد نكتشف أن أكثر ما أضاع سعادتنا لم يكن نقص الأشياء، بل اعتقادنا أن الحياة لا تستحق أن تُعاش إلا حين تصبح كاملة.

فالسعادة ليست وجهة نصل إليها، بل طريقة نختار بها أن نعيش.

-نهاية الفصل الثامن-

الفصل التاسع والأخير: ما بعد اليقين

«ليس النضج أن نمتلك إجابات عن كل شيء، بل أن نتعلم كيف نعيش بسلام مع ما لا نعرفه.»

حين تنتهي رحلة البحث

بدأنا هذه الرحلة بسؤال عن الحقيقة، عن ذلك الشيء الذي نبحث عنه وكأننا إذا وجدناه سنرتاح أخيرًا.

حاولنا أن نفهم أنفسنا، وتأملنا وحدتنا، وخفنا من الزمن، وتساءلنا عن الحرية والحب والموت والسعادة.

وفي كل مرة كنا نظن أننا اقتربنا من إجابة نهائية، ظهر سؤال جديد.

ربما لأن الحياة ليست لغزًا له حل واحد، وربما لأن الإنسان نفسه يتغير باستمرار، فلا يستطيع أن يحبس وجوده داخل إجابة ثابتة.

لقد آمضينا وقتاً طويلاً نحاول الوصول إلى اليقين، وكآن الشك عدو يجب هزيمته، وكأن عدم المعرفة نقص يجب إخفاؤه.

لكن ماذا لو كان الاعتراف بأننا لا نعرف بداية الحكمة؟

الإنسان كائن يبحث عن المعنى

نحن لا نكتفي بأن نعيش؛ نريد أن نفهم لماذا نعيش.

نبحث عن معنى لأحداثنا، ونحاول أن نجد تفسيرًا لخساراتنا، ونسأل عن سبب الألم، وعن العدالة، وعن المصادفات التي تغير حياتنا دون استئذان.

نريد أن نصدق أن لكل شيء سببًا واضحًا، وأن كل ما يحدث يقود إلى نتيجة مفهومة.

لكن الحياة لا تقدم لنا دائمًا تفسيرًا.

بعض الأسئلة تبقى مفتوحة، وبعض الخسارات لا تعوّض، وبعض الأحداث لا نفهم معناها مهما حاولنا.

وربما لا تكمن شجاعة الإنسان في أن يجد معنى لكل ما يحدث، بل في أن يصنع معنى لحياته رغم ما لا يستطيع فهمه.

ما بعد اليقين ليس فراغًا

قد يبدو التخلي عن اليقين أمرًا مخيفًا.

فاليقين يمنحنا شعورًا بالأمان، ويجعل العالم يبدو أكثر ترتيبًا. أما الشك فيفتح أبوابًا لا نعرف ما الذي ينتظرنا خلفها.

لكن ما بعد اليقين لا يعني آن نعيش بلا مبادئ، آو آن نرفض كل حقيقة، أو أن نتوقف عن التفكير.

إنه أن نعرف أن أفكارنا قابلة للمراجعة، وأن قناعاتنا ليست بالضرورة الصورة الكاملة للعالم.

أن نمتلك الشجاعة لنقول: ربما كنت مخطئًا.

وأن نسمح لأنفسنا بالتعلم دون أن نشعر أن تغيير رأينا هزيمة.

فالعقل الذي لا يقبل المراجعة يتحول إلى سجن، والإنسان الذي يخاف من السؤال قد يقضي عمره مدافعًا عن أفكار لم يخترها بنفسه.

التصالح مع التناقض

داخل كل إنسان عوالم متعارضة.

نريد القرب ونخافه، نحب الحرية ونبحث عن الأمان، نشتاق إلى الماضي ونتمنى لو نعود لنغيره، ونحلم بالمستقبل بينما نخشى ما قد يحمله.

وقد نكون أقوياء في موقف وضعفاء في آخر، واثقين في لحظة ومترددين في لحظة أخرى.

ليس علينا أن نمحو هذه التناقضات كي نصبح أشخاصًا متكاملين.

ربما يكون الإنسان أكثر صدقًا حين يعترف بأنه ليس فكرة واحدة، ولا شعورًا واحدًا، ولا نسخة ثابتة من نفسه.

نحن نتغير، نتعلم، نتراجع، ونبدأ من جديد.

والتصالح مع الذات لا يعني أن نحب كل ما فينا، بل أن نمتلك الشجاعة لرؤية أنفسنا كما نحن، دون تزييف أو قسوة.

أن نعيش دون ضمانات

نريد ضمانًا للحب قبل أن نحب، وضمانًا للنجاح قبل أن نحاول، وضمانًا للسعادة قبل أن نسمح لأنفسنا بالفرح.

لكن الحياة لا تمنحنا هذه الضمانات.

لا أحد يعرف كم سيبقى له من الوقت، ولا كيف ستنتهي الحكايات، ولا أي الطرق ستقودنا إلى أماكن لم نتوقعها.

ومع ذلك، علينا أن نعيش.

أن نحب رغم احتمال الفقد، وأن نحلم رغم احتمال الخيبة، وأن نبدأ رغم خوفنا من النهاية.

ليس لأننا نضمن النتائج، بل لأن الحياة نفسها لا تنتظر منا أن نضمن كل شيء.

ربما تكون الحرية الحقيقية أن نتحرك رغم عدم معرفتنا بما سيحدث، وأن نختار دون أن نمتلك القدرة على التحكم في كل النتائج.

الحقيقة التي لا نملكها بالكامل

هل وجدنا الحقيقة في نهاية هذه الرحلة؟

ربما لا.

لكننا تعلمنا أن نقترب منها دون ادعاء امتلاكها، وأن نسأل دون أن نخجل من أسئلتنا، وأن نشك دون أن نفقد إيماننا بإمكانية المعرفة.

فالحقيقة ليست دائمًا ما يريحنا، والراحة ليست دائمًا دليلًا على أننا على صواب.

قد نحتاج أحيانًا إلى مواجهة فكرة تؤلمنا، أو التخلي عن اعتقاد منحنا الأمان طويلًا، أو الاعتراف بأننا لم نفهم أنفسنا كما كنا نظن.

وهذا لا يجعل رحلتنا فاشلة.

بل ربما تكون أجمل نتيجة وصلنا إليها هي أننا أصبحنا أكثر تواضعًا أمام الحياة، وأكثر رحمة تجاه أنفسنا والآخرين.

ماذا يبقى؟

حين تتساقط الإجابات التي اعتقدنا أنها نهائية، ماذا يبقى؟

يبقى الإنسان.

يبقى ذلك الكائن الذي يخاف ويحلم، يحب ويخسر، يبحث ويتعب، ثم ينهض ويحاول مرة أخرى.

يبقى أثر الكلمات التي قلناها، والقلوب التي لمسناها، واللحظات التي عشناها بصدق.

يبقى ما تعلمناه من الألم، وما منحناه من حب، وما تركناه في حياة الآخرين دون أن ننتبه.

وربما لا يحتاج الإنسان إلى آن يفهم الكون كله كي يشعر آن وجوده له قيمة.

يكفي أن يعيش بوعي، وأن يكون صادقًا مع نفسه قدر استطاعته، وأن يحاول ألا يجعل خوفه من المجهول يمنعه من عيش المعلوم.

الخاتمة: هشاشة اليقين

في بداية هذه الرحلة، ربما كنا نبحث عن إجابة تمنحنا الطمأنينة.

أما الآن، فقد نكون أدركنا أن بعض الأسئلة لا تأتي كي نجد لها نهاية، بل كي تجعلنا نرى الحياة بطريقة مختلفة.

لقد ظننا أن اليقين قوة لا تهتز، ثم اكتشفنا أنه قد يكون هشًا أمام تجربة واحدة، أو خسارة واحدة، أو سؤال لم نفكر فيه من قبل.

واكتشفنا أن الشك ليس دائمًا ضعفًا، وأن الاعتراف بعدم المعرفة ليس عجزًا، وأن تغيير قناعاتنا قد يكون شكلًا من أشكال الشجاعة.

لسنا مطالبين بأن نعرف كل شيء، ولا بأن نمتلك تفسيرًا لكل ما يحدث.

لسنا مطالبين بأن نكون دائمًا أقوياء، أو سعداء، أو متأكدين من الطريق.

كل ما علينا هو ألا نتوقف عن رؤية أنفسنا والعالم بعيون مفتوحة.

فالحياة أوسع من أفكارنا، والإنسان أعمق من تعريف واحد، والحقيقة ربما أكبر من أن يحتويها عقل واحد.

وفي النهاية، لا أعرف إن كنا قد وصلنا إلى الحقيقة، لكنني أعرف أننا تعلمنا شيئًا مهمًا: أن نعيش دون أن ندّعي امتلاكها.

فليس كل ما نؤمن به حقيقة، وليس كل ما نشك فيه وهمًا.

وربما لا تكمن الحكمة في أن نتخلص من هشاشة اليقين، بل في أن نتعلم كيف نعيش رغمها.

— تمّت الرحلة، ولم تنتهِ الأسئلة.

-نهايه الفصل التاسع-

الكاتبة: ملك مصطفى سلمان